

سلسلة الأوپرا
والمسرح العالمي

فيديليو






فيديليو

فيديليو
قميص أول



تأليف: لودڤيغ ڤان بيتهوڤن

رسوم: أندرياس فيشر

ترجمة: Market Tech

الطبعة الأولى 2010 م



كلمة KALIMA

info@kalima.ae

www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ ، فاكس: 462 6314 2 971+

معالم maalem للطباعة والنشر والتوزيع ذ.م.م for Printing, Publishing and Distribution L.L.C

info@maalem.net

www.maalem.net

ص.ب: 62606 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 6222622 2 971+ فاكس: 6222112 2 971+

سلسلة الأوپرا

والمسرح العالمي

فيديليو





في فِناءِ سجنٍ قربَ إشبيلية في إسبانيا، كانَ حارسُ البوّابَةِ جاكوينو يُعلِنُ كالمعتادِ حُبَّهُ لمارزلّين ابنةِ المراقِبِ روكو:

ـ «مارزلّين، أرجوكِ اسمعيني».

ـ «أنا أسمعُ، تَكَلّمْ أرجوكَ».

كانت مارزلّين تسخَرُ دائماً من جاكوينو الذي يُزعِجُها، لأنَّهُ يُلاحِقُها أينما ذَهبَتْ وكانَ لا يتوقّف عن الكلام.

ـ «إن لم تنظري إليَّ مباشَرَةً، لن أتفوّه بكلمَةٍ أخرى».

ـ «حقاً؟ افعَلْ إذاً ما يحلو لك. ليسَ لديَّ ما أَسمعُه منكَ».

ـ «حسناً، سأتكلّم. مارزلّين أرجوكِ وافقي على الزواجِ مني!».

ـ «عمَّ تتكلّم جاكوينو؟ الزواج؟ لكنّني لا أحبُّكَ».

عجّلَتْ في الدخولِ إلى المنزلِ كما لو أنّ كلامَهُ لم يعنِ لها شيئاً. فتبِعَها إلى المنزلِ مردِّداً أنّه يحبّها. ولكنْ، في الحقيقةِ، هي لم تكُن تُفَكِّرُ سوى في فيديليو. فمنذ فترةٍ قصيرَةٍ، وظّفَ والدُها فيديليو مساعداً له، وما إن رأتْهُ للمرَّةِ الأولى حتّى وَقَعَتْ في حبِّه. أحبَّتْ مظهَرَهُ النظيفَ والمُشرقَ وشخصيّتَهُ الحنونَةَ والهادئة. وكادَت أن تُصابَ بصُداعٍ لكثرَةِ ما فكّرت في طريقةٍ لجذبِه، لذلكَ كان من المستحيلِ بالنسبةِ إليها أن تسمعَ كلامَ الحبِّ من جاكوينو.

في تلكَ اللحظةِ، نادى والدُها جاكوينو:

ـ «جاكوينو، جاكوينو».

ـ «جاكوينو إنّ والدي يُناديك».

ـ «مارزلّين، أرجوكِ اسمعيني قليلاً بعد».

ـ «أسرِعْ واذهب إلى أبي، ربّما جَلَبَ أخباراً عن فيديليو».

ما إن سَمِعَ اسمَ فيديليو حتّى امتلأ غضباً وذَهَبَ يتهادى في سيرِه إلى والدِها روكو. نظرَتْ إلى جاكوينو وهو يذهَبُ فاشتاقَتْ إلى فيديليو أكثر.

ـ «كم سأكونُ سعيدةً لو أحبَّني فيديليو بدلاً من جاكوينو! سيكون أبي أيضاً مسروراً».



بعدَ وقت، دخلَ روكو إلى المنزلِ وسألها:

- «مارزلّين، ألم يأتِ فيديليو بعد؟».

- «لا، أبي».

- «ما الذي يؤخِّرُه؟ قد يصلُ حاكمُ السجن دون بيتزارّو في أيِّ لحظةِ الآن...».

كان روكو قد بدأ يقلَقُ وفجأةً دُقَّ الباب.

- «أبي، لا بدَّ أنّه فيديليو. انتظر لحظةً، أنا آتية».

حين فَتحت مسرعةً البابَ، رأت أمامَها فيديليو حاملاً كيساً كبيراً على ظهره. كانَ يرتدي سُترةً ثقيلةً وصدريّةً سميكةً وكان العَرَقُ يتقطَّرُ من جبينِه. فأخذَت مارزلّين تبحَثُ عن منديلٍ لتمسَحَ به عَرَقَه.

- «عزيزتي، ذلك ليسَ أمراً مستعجِلاً. علينا أوّلاً إزالَةُ الحِملِ عن ظَهرِه».

ساعَدَتْ أباها ليضَعا الحِملَ الثقيلَ على الأرض. تَنَفّس فيديليو الصُّعداءَ فشَعَرَتْ مارزلّين بالرّاحَة.

- «أحسَنتَ يا فيديليو! قمتَ بعملٍ جيّد. لا بُدَّ أنّ هذه التجهيزاتِ ثقيلَةٌ جداً».

- «تأخَّرتُ لأنّ الحدّادَ احتاجَ إلى بعضِ الوقتِ لتثبيتِ السلاسِلِ المعدنيّة. على الأرجح أنْ لا سجينَ سيتمكّنُ من كسرِ تلكَ السلاسِل».

- «حسناً، كم الكلفَةُ؟».

- «اثنا عشرَ قرشاً تقريباً. وهذا الإيصال».

سُرَّ روكو واستلَمَ الإيصالَ من فيديليو. لم يتغيّرْ شيءٌ ولكنْ، بطريقةٍ ما وبعدَ أن بدأ فيديليو العَمَلَ كمساعدٍ له، أصبَحَ بإمكانه شراءُ المزيدِ من التجهيزاتِ بالسعرِ عينه. فظنَّ روكو أنّ فيديليو ربّما عَرفَ كيفَ يختارُ التجهيزاتِ العاليةَ التقنيّةِ بأسعارٍ معقولةٍ أو ربّما كان يَغُشُّ البائع.



كان روكو على يقين أنّ إخلاصَ وقُدرةَ فيديليو لا مثيل لهما، فقرّر أن يُزوِّجَهُ ابنتَه. وكان يعرفُ أنَّ ابنتَهُ تُحبُّه لكنّ ذلكَ الحبَّ غيرُ متبادَل.

- «فيديليو، يجبُ أن تَعرفَ أنَّ ابنتي مارزلّين متيّمَةٌ بكَ».
- «عفواً؟ ماذا تقصد...».
- «إنّها تُحبُّكَ جداً، أنا أظنُّ أيضاً أنّكما مناسبانِ جداً. لا أعرفُ إن كانَ لكَ أهلٌ أم لا أو من أينَ تأتي، لكنَّني أريدُكَ أن تُصبحَ صِهري».

كانت مارزلّين تستمعُ بصمتٍ إلى حديثِهما، فصاحَت بأعلى صوتِها فرِحَةً:

- «حقاً أبي؟ أتوافقُ فعلاً على زواجي بـ فيديليو؟».

وأكمَلَ والدُها:

- «لكنَّ الزواجَ يتطلَّبُ أكثرَ من الحب. فلإنشاءِ عائلَةٍ سعيدَةٍ عليكَ أن تَعرفَ أنّكَ بحاجَةٍ إلى أن تدّخرَ بعضَ المال. فإذا كنتَ جائعاً ولا تملكُ المالَ، قد يختفي الحب».

استمَعَ فيديليو بهدوءٍ إليه وفكَّرَ للحظةٍ ثمَّ أجابَهُ:

- «سيّدي العزيز، أعتقدُ أنَّ ثمّةَ ما هو أهمُّ من المالِ بينَ شخصينِ على وشَكِ أن يصبحا زوجاً وزوجة».
- «ما تُراهُ يكون؟».
- «الثّقة.. أعتقدُ أنّني لم أكسب ثقتك بعد».
- «ما الذي تقولُه؟ أنا أثِقُ بكَ أكثرَ من أيِّ شخص، ما الذي جعَلَكَ تعتقدُ العكس؟».
- «منذ أن أتيتُ إلى هنا، لم أحظَ بفرصةٍ لزيارَةِ الزنازينِ تحتَ السِجن. ألا يعني ذلكَ أنّكَ لا تثِقُ بي إلى حدٍّ يسمحُ لكَ بأن تدَعَني أعملُ مَعَك؟».
- «لا، هذا غيرُ صحيح. كما تعلَم، لا يُمكنُ لأحدٍ أن يرى مساجينَ الزنازين».
- «أقولُ ذلكَ لأنّني أهتمُّ بصِحَّتِكَ أكثرَ من أيِّ شيء. واعتقدتُ أنّه بما أنّني ما زلت شاباً، يمكنني أن أساعدَكَ في جولاتِكَ في زنازينِ السجنِ فيسهلُ عَمَلُك».

أُعجِبَ روكو بكلامِ فيديليو وأدمعَتْ عينا مارزلّين من شدّةِ التأثّرِ بسَبَبِ اهتمامِ فيديليو الشديدِ بوالدِها.

- «حسناً، فهمت. من الآنَ وصاعداً، عندما أقومُ بجولاتي في السجن، ستكونُ إلى جانبي. وحتّى لو كان الحاكمُ رجلاً صارماً جداً، سيسمَحُ لك بالذهابِ إذا كنتَ برفقتي. ولكنْ، سيكونُ من الصعبِ أن آخُذَكَ إلى أماكنَ معيّنةٍ في السجن...».
- «أيّ أماكنَ تعني؟».





- «بأمرٍ صارمٍ من دون بيتزارّو صنَعتُ بنفسي زنزانَةً... وفي داخِلِها سجين. ولسببٍ ما، أمرَني الحاكمُ بأن أراقبَ هذا السجينَ بشكلٍ خاص».

ركَّزَ فيديليو على الخَبَرِ ثمَّ سألَهُ مدهوشاً:

- «ما نوعُ الجريمةِ التي أدَّتْ به إلى السِّجن؟».
- «لا تسألْني المزيد. من الأفضلِ ألاّ يعرفَ الناسُ أمثالُنا شيئاً. في الحقيقة، حاوَلَ هذا السجينُ مرَّةً أن يكلِّمَني، لكنّني لم أصْغِ إليه. في كلِّ الأحوال، إنّه رجلٌ مسكينٌ يعتاشُ من قطعَةِ خبزٍ وكوبِ ماء... ما من ضوءٍ في زنزانته ولا حتّى حُزمةِ قش».

ومن دونِ أن يشعرَ، أحنى فيديليو رأسَهُ وأغمَضَ عينيه. عندما رأت مارزلّين عدمَ ارتياحِه، قالَت:

- «أبي، لا تأخُذْهُ مَعَكَ إلى هناك، يبدو أنّه منزعجٌ لمجرَّد التفكيرِ في مكانٍ مماثل».

قال فيديليو في نفسه: «آه، يا إلهي!»، ثمّ تابَعَ بنشاطٍ قبلَ أن يخرُجَ مع مارزلّين:

- «لا مارزلّين، ليس الأمرُ كما تظنّين. أحنيتُ رأسي بسببِ غُبارٍ في عينيَّ. سيّدي، أنا لا أخافُ شيئاً، كما أنّني أريدُ أن أساعدَكَ بالطبع».

بعدَ فترةٍ، زارَ دون پيتزارّو ـ الحاكمُ المسؤولُ عن السجنِ المعروفُ بصلابتِه وبُخلِه ـ روكّو برفقةِ حُرّاسِه. أخذَ الظرفَ الذي سلَّمَهُ إيّاهُ روكّو وقرأَ بسرعةٍ ما في داخلِه.

ـ «ماذا؟ الوزيرُ دون فرناندو آتٍ للتفتيشِ؟».

مَزَّقَ پيتزارّو الورقةَ التي كانَ يحمِلُها ورماها أرضاً. في الواقعِ، كانَ السجينُ الغريبُ صديقاً للوزيرِ دون فرناندو ويُدعى فلورستان، وكانَ من المرجَّحِ أن يأخُذَ مكانَ دون پيتزارّو. شَعَرَ دون پيتزارّو بالخطرِ يتهدَّدُ منصبَهُ، فخَطَفَهُ سرّاً ووضَعَهُ في الزنزانةِ. وإن اكتشَفَ أحدٌ ما أنّه سَجَنَ فلورستان من دونِ وجهِ حقٍّ، فسيقتلُه بالتأكيدِ. كانَ الوقتُ يداهِمُهُ فأمَرَ پيتزارّو الحرّاسَ أن يُرسِلوا إشارةً من أعلى برجٍ عندَ وصولِ موكبِ الوزيرِ. ثمَّ همَسَ لروكّو بصوتٍ خافتٍ:

ـ «أريدُ منكَ خدمةً... أيمكنُكَ أن تُسديَني خدمةً؟».

ـ «ماذا تريدُني أن أفعَلَ؟».

ـ «لا شيءَ مهمّاً. حسناً، لا يجبُ أن يكونَ ذلك صعباً. ممم... أريدُ أن أتخلَّصَ من شخصٍ، وستكونُ هذه مهمَّتُكَ».

ـ «ماذا؟ أتطلُبُ منّي أن أقتُلَ شخصاً؟».

ـ «سأكافِئُكَ بسخاءٍ. أتذكُرُ سجينَ الزنزانةِ؟ مُهِمَّتُكَ التخلُّصُ منه».

فأجابَهُ روكّو مرتجِفاً:

ـ «أنا... أنا لا يمكنني أن أفعَلَ هذا. لا أستطيعُ أن أقتُلَ».

نقَرَ پيتزارّو بلسانِه وعبَسَ قليلاً ثمّ اقترَحَ حلاً آخرَ:

ـ «إذاً يجبُ أن تحفِرَ حُفرَةً».

كانَ يقصدُ بالحُفرَةِ القبرَ حيثُ سيَدفِنُ السجينَ. كانت خُطَّةُ پيتزارّو أن يذهَبَ إلى الزنزانةِ ويقتُلَهُ ثمّ يدفِنَهُ في الحفرَةِ التي يكونُ روكّو قد حفَرَها. هزَّ روكّو رأسَهُ سلباً خائفاً، ولكنَّهُ فكَّرَ من ناحيةٍ أخرى في أنّ موتَ السجينِ أفضَلُ من الحياةِ التي يعيشُها. فوافَقَ أخيراً على أن ينفِّذَ أمرَ پيتزارّو:

ـ «نعَم، ربّما من الأفضَلِ له أن يرقُدَ بسلامٍ من أن ينتظِرَ في ظلامِ الزنزانةِ ساعةَ موتِه من الجوعِ».



في اليوم التالي، رَكَضَ فيديليو نحوَ روكّو وقالَ له كما لو أنّهُ انتظَرَ طويلاً:



ـ «سيّدي، أتذكُرُ الخدمةَ التي طَلَبتُها منكَ؟».

ـ «أيّةَ خدمة؟».

ـ «طَلَبتُ منكَ أن تَدَعَ المساجينَ القابعينَ تحت الأرض منذ مدّةٍ طويلةٍ يخرُجونَ إلى فناءِ السجنِ ليستمتِعوا بالهواءِ العليلِ والشمسِ الساطعَة. واليومُ يومٌ جميلٌ، أرجوكَ، اسمَح لهم أن يخرجوا».

فكّرَ روكّو لحظةً ثمّ أمَرَ جاكوينو أن يفتَحَ بابَ السجن. وسرعانَ ما تجَمَّعَ المساجينُ واحداً تلوَ الآخرِ في الفناء، وشرَدوا بأفكارِهم ما إن شَعَروا بالحرّيةِ للحظة خارجَ السجونِ الشبيهةِ بالقُبور؛ بَعضُهُم حاوَلَ تنشّقَ الهواءِ، بينما استلقى آخرونَ على ظهورِهم ليشعروا بدفءِ نورِ الشمس. كانوا مسرورينَ جداً فلم يعرِفوا ما العَمَل.

ومن ناحيةٍ أخرى، اقتَرَبَ روكّو من فيديليو الذي كانَ يبتَسِمُ وأخبَرَهُ عن خُطَّةِ بيتزارّو. حاوَلَ فيديليو أن يبقى هادئاً لكنّه لم يستطِعْ بسهولةٍ إخفاءَ وجهِهِ الذي شَحُبَ.

في الواقع، لم يكن فيديليو رجُلاً، بل كان ليونور زوجةَ فلورستان متنكِّرَةً بثيابِ رجلٍ لإنقاذِ زوجِها المفقود. ولإخفاءِ حقيقَتِها، ربطت شعرَها وغطَّتهُ بشبكةٍ، وكانت ترتدي دائماً عدَّةَ طبقاتٍ من الملابِسِ وتتكلَّمُ بصوتٍ عميق.

ومنذ أن عَرَفَتْ أنَّ زوجَها فلورستان في السجنِ، بحَثَت عن فرصَةٍ لإنقاذِه. والآن حزِنَ فيديليو لسماعِهِ خُطَّةَ بيتزارّو الرهيبة.

ـ «يبدو أنّكَ خائف. يجبُ أن أقومَ بالعَمَلِ بمفرَدي».

ـ «لا. أشعُرُ ببعضِ الاضطرابِ لأنّها المرَّةُ الأولى التي أنفّذُ فيها مثلَ هذا العمل. سيّدي أرجوكَ دعني أذهبُ معك. سأكتَسِب خبرَةً. أرجوكَ دعني أرافقك».

وثِقَ روكّو جداً بفيديليو لإيجابيّتِه، فربَّتَ على كتفِه.

في هذه الأثناء، وفي الجانبِ الآخَرِ من الفناء، كانَ جاكوينو ومارزلّين يركضانِ مُسرعين. شيءٌ ما كان يحدث. وكما هو متوقَّعٌ، مشى بيتزارّو خلفَهم نحو روكّو نافخاً دخانَ سيجارَته. بدا مستاءً جداً ومشى بطريقة غيرِ متوازنة:

ـ «أيّها الرجلُ الوقح. من أمَرَكَ بإخراجِ هؤلاءِ المساجين؟».

ـ «أنا آسِفٌ، أيّها الحاكمُ بيتزارّو. اليومَ عيدُ ميلادِ الملك، لذلك فكَّرتُ في إقامَةِ حفلٍ على شَرَفِ الملك... ولكنْ، أهمُّ ما في الأمر...».

راوغَ روكو وحاولَ تَهْدِئَتَهُ قائلاً إنّه يفعَلُ ذلكَ ليُريحَ السجناءَ قبلَ أن يقعا في المتاعِبِ حين يقتلانِ السجينَ في الزنزانة. استمعَ بيتزارّو بهدوءٍ إليه، ووجدَ أنّ كلامَه منطقيّ:

ـ «حسناً، أنتَ مُحق. لكنَّ الوقتَ يُداهمُنا، لذا أسرِع واحفرِ الحُفرةَ الآن، وأرسِلِ المساجينَ إلى زنزاناتِهم».

وعلى أثرِ أمرِ بيتزارّو، جرَّ السجناءُ أنفسَهم إلى السجنِ المظلمِ بعدَ أن تمتَّعوا بالهواءِ والشمسِ ولو لفترةٍ قصيرةٍ، ومشوا بخطواتٍ متثاقِلَةٍ أكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى. وبعدَ التأكُّدِ من أنّ جميعَ السجناءِ في أماكِنِهم، أقفَلَ فيديليو وجاكوينو الأبواب.



من ناحيةٍ أخرى، كانَ فلورستان يجلِسُ مُنهكَ القُوى على أرضِ الزنزانةِ الرطبة. ومَع أنّه وُضِعَ في السجنِ باتِّهامِه زوراً، لم يستطع حتّى أن يحلمَ بالهَرَبِ لأنّه كان مقيّداً بالسلاسِلِ الثقيلةِ والصخور. وقد أصبحَ ضعيفاً جداً لأنّ جُلَّ ما كانَ يأكُلُهُ قطعَةَ خبزٍ قديم مقدَّد وكوبَ ماء.

ـ «يا إلهي.. أأستحِقُّ الموتَ بهذه الطريقة؟ رغم ذلكَ، لَنْ أوصي بشيءٍ ولن أندمَ على شيء. أنا فخورٌ بحياتي التي عِشتُها وضميري مرتاح. لَكنَّني لن أستطيعَ أَنْ أرى حبيبتي ليونور ثانيةً...». ونامَ مُنهكاً قبلَ أن يُنهيَ صلاتَه.

بعدَ فترةٍ، وَصَلَ فيديليو وروكّو ومعدّاتِ الحفرِ والمطرَةُ على أكتافِهما إلى حيثُ كان فلورستان مسجوناً. ارتَجَفَ فيديليو بسبَبِ البردِ في الزنزانَةِ، فرآه روكّو وقال:

ـ «ها هوَ ذا. إنَّهُ ملقىً على الأرض».

ـ «لا يتحَرَّكُ. أتظُنُّ أنّه ميت؟».

كانَ صوتُ فيديليو يرتَجِفُ. ولرؤيةِ فلورستان هزيلاً وملقىً على الأرضِ، شَعَرَ فيديليو ـ لا بل شَعَرَتْ ليونور ـ بالدُّوار.



ـ «لا، ما زال جَسَدُهُ يتحرَّكُ قليلاً. إنَّهُ نائم».

أرادت ليونور الاقترابَ من فلورستان لكنّها بقيتْ تراقبُهُ من بعيد خوفاً من أن يتمكَّنَ من التعرُّفِ إليها فيفضحَ أمرَها. أمّا روكّو الذي بدأ الحَفرَ، فلمّا رآها تقِفُ في مكانِها، حثّها على البدء:

ـ «ماذا تفعَل؟ أأنتَ خائفٌ الآن؟».

ـ «لا سيّدي، أنا أشعُرُ بالبرد».

ـ «سُرعانَ ما ستتعرَّقُ ما إن تبدأ بالعمَل. حسناً، يجبُ أن نسرع. سيأتي دون پيتزارّو في أيِّ لحظة الآن».

لكنّ فيديليو لم يستطع أنْ يَحْفرَ بشدّة مثلَ روكّو، لأنّها بقدر ما تحفرُ في الأرض، تسرِّعُ موتَ زوجِها. أحَسَّت بالعذاب لحفرِ مقبَرَةِ زوجِها بيدَيها.

ـ «فيديليو تعالَ للحظَة».

فيما كان يحفِرُ الأرضَ بشدّةٍ، وَصَلَ روكو إلى صخرَةٍ كبيرَةٍ لا يمكِنُهُ إزالتُها بمفرَدِهِ فناداها لتساعدَه.

وبينما كان فيديليو يساعدُ روكو لإزالَةِ الصخرَة، وَقَعَ على الأرض وتظاهَرَ بأنّها ثقيلةٌ جداً وأنَّهُ بحاجَةٍ إلى استراحة. نظَرَ روكّو إلى فيديليو وقالَ بشكلٍ عصبيٍّ عاقداً حاجبيه:

ـ «ما الذي جَعلكَ اليومَ كسولاً إلى هذا الحدّ؟ قلتُ لكَ إنّ دون پيتزارّو سيأتي في أيِّ لحظَةِ الآن».

أمسَكَ فيديليو المعزَقَةَ بتردُّد، فشَعَرَ روكّو بالارتياح وأخذَ يشرَبُ الماء من المَطرَة. في هذه الأثناء، استيقَظَ فلورستان ونَهَضَ وهو يئِنُّ.

ـ «سيّدي، هذا الرجل... استفاق».

ـ «حقاً؟ سأكَلِّمُهُ وأنتَ أسرِع بالحفر».

استمعَ فيديليو إلى محادثتِهما متظاهِراً بحَفْرِ الأرض. كانَ فلورستان يطلُبُ من روكّو أن يقولَ لزوجَتِهِ الساكِنَةِ في إشبيلية إنّهُ مسجون.

أخفَتْ ليونور دموعَها وهي تردِّدُ في نَفسِها:

ـ «فلورستان، زوجتُكَ ليونور هنا. سامحني أرجوك. إنّني أحفِرُ لكَ قبرَكَ...».

وأكمَلَ روكّو قائلاً:

ـ «يجبُ أن أُطيعَ أوامرَ دون پيتزارّو. من الأفضَل لكَ أن تستَسلِم. أليسَ من الأفضَلِ أن تموتَ من أن تعيشَ مثلَ هذه الحياة؟».

ـ «ربّما... أنتَ محقٌّ... أمنيتي الوحيدةُ أن أرى وجهَ زوجتي للمرَّةِ الأخيرة».

لم يستطِع فيديليو تحمُّلَ الحزنِ الذي أصابَهُ وهو يستَمِعُ إلى فلورستان. في هذا الوقت، طلَبَ فلورستان من روكّو قطرةَ ماءٍ، فأمَرَ هذا الأخيرُ فيديليو بأن يجلِبَ مطرَةَ الماءِ ليلبّيَ آخرَ رغباتِه. حمَلَتِ المطرَةَ وركَضَت نحوَهُ وسلَّمَتهُ إيّاها.

- «من هذا الرجل؟».

- «إنَّه صِهري المستقبليّ. حسناً، اشرَبِ الماء».

- «شكراً لكَ. لن أنسى صنيعَك».

حينئذٍ، نَظَرَ فيديليو إليه، وأخذَ قطعَةَ خبزٍ من جيبِه كان قد حضَّرَها آملاً بأن يحظى بفرصَةٍ ليُعطيَها له فقال:

- «سيّدي... هذا الخبزُ معي منذ بضعَةِ أيّام. أيمكِنُني أن أعطيَهُ للسجين؟».

وافقَ روكو متردّداً. استلَمَ فلورستان الخبزَ من دونِ أن يتعرَّفَ إليها، وبدأ يلتَهِمُهُ بعدَ أنِ انحنى شاكِراً فيديليو عدّةَ مرّات.

- «فيديليو، أكلُّ شيءٍ جاهز؟ حسناً، يجب أن أُناديَ الحاكِمَ دون بيتزارّو».

بعد التأكّد من أنَّ فلورستان أنهى أكلَ الخبز، صَفَرَ روكو لإرْسالِ إشارة. سيطرَتْ ليونور على الأسى الذي اعتراها وأمسَكَت يدَ فلورستان محاولَةً رفعَ معنويّاتِه والطلَبَ منهُ ألاّ يفقدَ الأمل.

سَمِعَ دون بيتزارّو الإشارَةَ، فدَخَلَ إلى الزنزانَةِ مرتدياً قبّعَةً. لَمَعَ الغَضَبُ في عينيهِ كما لو أنَّهُ على وَشَكِ أن يسحَبَ سيفَهُ ويقتُلَهُ في أيِّ دقيقَة. أمّا هي، فحاوَلَتْ أن تُخفيَ صوتَ نبضاتِ قلبِها المرتفعَ عبرَ مُحاوَلَةِ تنقِيَةِ حُنجرَتِها، بينما جَفَّتْ شفتاها من كثرَةِ التوتُّر.



ـ «روكّو، هل كلُّ شيءٍ جاهز؟».

ـ «بالتأكيد».

ـ «بالمناسَبة، من هذا الرجُلُ الواقفُ إلى جانبِكَ؟».

ـ «إنّه مُساعِدي، اسمُهُ فيديليو. لا تقلَق يمكِنُ الوثوقُ به».

ـ «قُل له أن يتنحّى».

رَمَقَ روكّو فيديليو لكي يتراجع، فأَخَذَتْ تتراجَعُ رويداً رويداً. ثمّ أخذَت تتحَرَّكُ بهدوءٍ نحو فلورستان خطوةً بعد خطوةٍ وهي لا تحيدُ نظَرَها عن پيتزارّو.

ـ «روكّو، أأئتمنُكَ على كتمانِ السرِّ؟».

ـ «طبعاً سيّدي. أتريدُني أن أُزيلَ السلاسلَ عن السجينِ الآن؟».

ـ «لا، ليسَ لدينا متّسَعٌ من الوَقت. دعهُ كما هو».

أخرَجَ پيتزارّو خنجَراً واقتربَ من فلورستان وبدا متأكِّداً من نصره فدَفَعَ صدرَ فلورستان قليلاً بالخنجَرِ مبتسماً. لكنَّ هذا الأخيرَ قرَّرَ مواجَهةَ الموتِ بهدوءٍ، فحدَّقَ بـ پيتزارّو.

ـ «فلورستان، ألديكَ كلمةٌ أخيرةٌ تقولُها؟ في الحقيقةِ، لن يكون لمجرمٍ مثلِكَ ما يقولُه ولو كان له عشرةُ أفواه. أليسَ كذَلك؟».

ـ «يوماً ما ستَنكشفُ حقيقتُكَ. إنّي لا أخافُ الموت. هيّا أيّها الجبانُ اطعَنّي».

ـ «أيها المغرور. إن كنتَ تريدُ ذلكَ حقاً، لا بأس!».

في تلكَ اللحظة بالتحديد، خَرَجَ فيديليو من وراء فلورستان ووقَفَ أمامَهُ ومدَّ ذراعيهِ وقال:

ـ «قبلَ أن تطعَنَهُ، من الأفضلِ لكَ أن تَقتُلَني أوّلاً فأنا زوجتُه».

ـ «ما.. ماذا؟ زوجَتُهُ؟».

شوّشتْ هذه الحقيقةُ ذهنَ روكّو وبيتزارّو اللذينِ لم يستطيعا أن يُعبِّرا. أمّا فلورستان الذي عَرَفَ زوجَتَهُ، فكادَ أن يُغمى عليه من الصدمة.

ـ «هذا صحيح. أنا ليونور زوجةُ فلورستان. انتظرتُ طويلاً جداً لأنقذَ زوجي وأنا متنكِّرَةٌ كرجل».

ـ «إذاً أنتِ زوجَةُ فلورستان فعلاً؟ حتّى أنا، أقدِّرُ شجاعَتَكِ بأن تتنكّري كرَجل. ولكنْ، للأسَفِ ستموتانِ معاً».

ما إن أنهى بيتزارّو كلامَهُ حتى سَحَبَتْ ليونور مُسدَّساً وصوَّبتهُ نحوَهُ.

ـ «سنرى من الذي سيأسَف».

تفاجأ بيتزارّو فرمى خنجَرَهُ ولم يعرِف ما العمل.



في هذا الوَقت، سُمِعَ صوتُ بوقٍ بعيد يُعلِنُ وصولَ الوزير دون فرناندو. لكِنَّ ليونور كانت تراقِبُ پيتزارّو عن كثب. أدّى مجيءُ جاكوينو والجنود حامِلينَ المصابيحَ للإعلام عن وصولِ الوزير إلى كسرِ حدّةِ التوتّرِ الذي ارتفَعَ في المكان.

ـ «حالَفَكَ الحظُّ هذه المرَّةَ لكنّكَ ستدفَعُ غالياً ثمنَ فعلَتِك». ثمّ أسرَعَ پيتزارّو وخَرَجَ مع روكو لتحيَّةِ الوزير.

بكى فلورستان من الفَرَح وعانَقَ زوجتَهُ التي عانَتْ الأمرَّين لإنقاذه وهي متنكِّرَةٌ بزيِّ رجُلٍ، وأجهَشَتْ ليونور أيضاً بالبكاءِ لأنّها رأت زوجَها ثانيةً.

وَصَلَ الوزير دون فرناندو إلى ساحةِ البلدة برفقَةِ عدَدٍ كبيرٍ من الجنود، ثمَّ دَعا المراقبَ روكو وسَلَّمَهُ أمرَ الملكِ بإطلاقِ سراحِ كُلِّ السجناء. وما إن فُتِحَ بابُ السجنِ حتّى أسرعَ السجناءُ إلى الخارجِ كالعاصفَة. وفجأةً، هدأوا مرتبكينَ من هذا الإطلاقِ المفاجئِ وأخذوا ينظرونَ حولَهم.

«وَصلَ الوزيرُ إلى ساحةِ البلدةِ، وطلبَ من الجميعِ التجمُّعَ في الساحَة».

عندما رَأى جاكوينو ومارزلين الوزيرَ، رَكَعا ففعَلَ المساجينُ الشيءَ ذاتَهُ على الفورِ ومعاً في الوقتِ نفسه.

ـ «حَسناً، قِفوا جميعُكم رجاءً. لستم بعدَ الآن سُجناءَ، لذا لم تعودوا بحاجةٍ إلى أن تركعوا كالعبيد. من الآنَ فصاعداً، أنتم رجالٌ أحرار، أحرار!».

صَرَخَ المساجينُ في بهجَةٍ من كلِّ صوب:

ـ «يعيش، يعيش! نحن أحرار!».

ـ «يعيش، يعيش الوزير!».

نظَرَ إليهم الوزيرُ دون فرناندو وعلى وجهِهِ ابتسامَةُ الرِّضى لرؤيتِهم يعانقونَ بعضَهم بعضاً فرحين.



ـ «حضرَة الوزير، رجاءً ارحَم البؤسَ الذي مرَّ به هذانِ الزوجان».

قادَ روكو فلورستان الذي صَعِدَ للتوِّ من الزنزانة إلى الساحة حيث يقفُ الوزير. عبسَ بيتزارّو الواقفُ بجانب الوزيرِ في وجهِ روكو ثمّ بدأ يسيرُ إلى الخلف ليتمكّنَ من الهَرَب. نظَرَ دون فرناندو إلى وجهِ السجينِ المرهَقِ الذي كانَ مرميّاً في الزنزانةِ لفترةٍ طويلة، ودُهِشَ لمّا رآه.

ـ «ماذا؟ أنتَ فلورستان أليسَ كذلك؟ عزيزي.. اعتقَدْتُ أنّكَ مُتَّ...».

وأتى روكّو أيضاً بليونور إلى جانبِ فلورستان.

ـ «حسناً، يا إلهي، أنت بالتأكيدِ ليونور، صحيح؟».

وأجابَ روكّو عنها لأنّها كانت عاجزةً عن الكلام لتُعبِّرَ عن فرحتِها:



ـ «إنّ ليونور الواقفةَ هنا قد تنكّرَتْ بثيابِ رجلٍ ودَعَتْ نفسَها فيديليو لتنقذَ زوجَها. لو لم تتدخّل حضرَةَ الوزيرِ لكانَ هذانِ الزّوجانِ ميتَين».

في هذه الأثناء، كانَت مارزلّين تفرُكُ عينَيها وكأنّها لا ترى جيّداً. فكيفَ يُمكِنُ أن يكونَ فيديليو امرأةً وليسَ رجلاً. أخيراً، أدرَكَ الوزيرُ دون فرناندو ما كان يحدثُ فصَرَخ:

ـ «أوقِفوا دون بيتزارّو حالاً، فلقد سَجَنَ رجلاً بريئاً وحاوَلَ قتلَه!».

حالما سَمِعَ بيتزارّو الأمرَ، أخَذَ يركضُ باتّجاهِ الجبال. ولكن، سرعانَ ما أوقَفَهُ الجنودُ وجرّوه ليعتقلوه.

ـ «ليونور، لا بدَّ أنَّكِ عانيتِ الكثيرَ من المشاكل. ما رأيُكِ بأن تحرِّري بيديكِ فلورستان الآن؟».

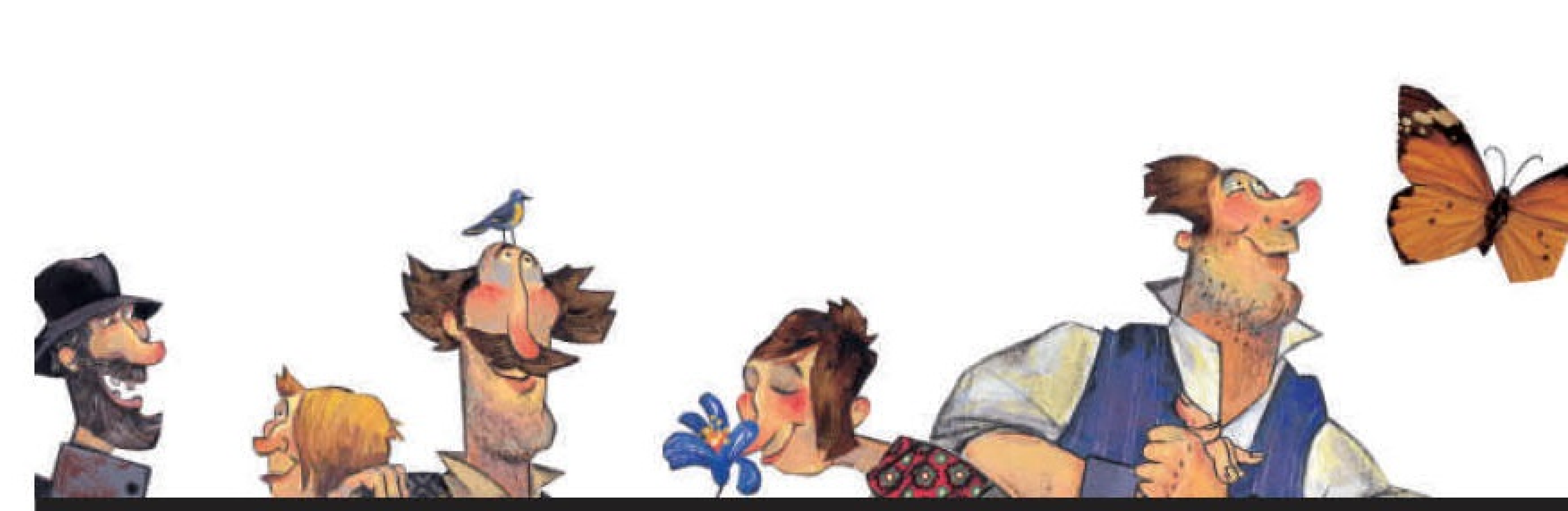
وعلى أثرِ كلماتِ دون فرناندو، أخذَتْ ليونور المفاتيحَ وحرَّرت فلورستان من السلاسلِ التي كان مقيّداً بها. كانت تنتظرُ هذه اللحظةَ منذ وقتٍ طويلٍ فغمَرَتْ زوجَها وقبّلَته.

ـ «لقد أنقذَني حُبُّكِ».

ـ «لا، لقد فَعلتُ ما يتوجَّبُ على الزوجةِ أن تفعلَه».

بعدَ أن استعادَ فلورستان حياةَ الحرّيّةِ التي انتظرها طويلاً، فرِحَ في لمِّ الشملِ مجدّداً. وأشرَقَتِ الشمسُ على ساحَةِ البلدَةِ التي امتلأتْ بأصواتِ الحُشودِ وهي تمدَحُ شجاعةَ ونُبلَ ليونور التي خاطَرَت بحياتِها لإنقاذِ زوجِها.





نبذة عن المؤلّف:

لودفيغ فان بيتهوفن

ولِدَ بيتهوفن (1770 ـ 1827) في عائلة موسيقيّين في مدينة بون في ألمانيا. عندما اكتشَفَ أبوه موهبتَه الموسيقيّة، دَفَعَهُ إلى التدرّب بصرامةٍ ليجعَلَ من الشاب لودفيغ الطفل المعجزة في الموسيقى، فأصبحَ في عمرِ الحادية عشرة تلميذ عازِف الأُرغن في البلاط كريستيان غوتلوب نيفه الذي شجّعه على الذهابِ إلى فيينا في النمسا، حيث قابلَ فولفغانغ أماديوس موزارت. أعالَ في ما بعد عائلَتَهُ بدلاً من والده الذي طعن في السنّ، وبمساعدةٍ من أصدقائه، تمكَّن من السفر إلى فيينا ليدرس الموسيقى، وهناك، تتلمَذَ على يدِ فرانز جوزيف هايدن وغيره وبدأ يشتهر.

وأكثر ما أحبطه كانَ فقدانه التدريجي للسمع، حتى أنّه كتَبَ وصيَّته عام 1802 في هيليجنشتادت وهي منطقةٌ في ضواحي فيينا. وعلى الرغم من ذلكَ، لم يفقد شَغَفَه بالموسيقى، ما أعطاه القوّة وجعَلَ منه المؤلّف الأكثر عبقريّة حتّى يومنا هذا. ألّفَ في تلك الفترة أكثر أعماله شهرةً في العالم، مثل السمفونيّة رقم 3 «البطولة» والسمفونيّة رقم 5 «القدر» والسمفونيّة رقم 6 «الرعويّة» إلخ.. وبعدَ أن فقدَ سَمْعَه كليّاً، استمرَّ بتأليف الموسيقى ليخلِّدَ أعمالاً عظيمةً عدّةً مثل السمفونية رقم 9 الكورالية وسوناتا للبيانو رقم 8 پاثيتيك ورقم 14 «في ضوء القمر»، وكونشيرتو البيانو رقم 2 كيسر وميسا سولميني وغيرها.

وكانت فيديليو الأوبرا الوحيدة التي ألّفَها بيتهوفن، وهي تُخبرُ عن قصّة جرت أحداثها في خلال الثورةِ الفرنسيّة ولكن، على خلفيّة إسبانيّة من أواسط القرن الثامن عشر. تظهر أوپرا فيديليو امرأةً وهي ليونور وقد تنكّرت بثيابِ رجل لتنقذَ زوجها فلورستان الذي أوقَفَهُ منافسه السياسيّ وكادَ أن يقتلَهُ. وعندما عُرِضَت الأوبرا للمرّة الأولى، لم تلقَ نجاحاً باهراً، ولكنْ، نتيجةً لتنقيحِها على مدى ثماني سنوات، قُدِّمَتْ كأعظم وأفضل عملٍ أصبَحَ لاحقاً النموذج الكلاسيكي للأوبرا الألمانية.



نبذة عن الرسّام:

أندرياس فيشر

ولِدَتْ فيشر عام 1971 في كازاخستان. دَرَسَت الفنَ في المعهد التربوي في أومسك في روسيا. وفي العام 1990، هاجَرَت إلى ألمانيا حيث دَرَسَت التصوير في جامعة التصميم التصويري في «آخن».

تعمَلُ منذ العام 2000 كرسّامة مستقلّة، وقد شاركَت في معرضِ الرسم الألماني في «أوچسبيرغ» وكان لها معرَضٌ أسمَتهُ «هجوم الشياطين» ومعرض «آرت فورم» في «آخن».

استعملتْ في «فيديليو» تقنيةَ الفنّ التصويري لإظْهار العناصر المُختَلِفةِ في حسٍّ فريد للألوان المائيَّة القاتمة عبرَ استعمال «الغواش» وقصّ القِطَع التي تلصَقُ في ما بعد على الخلفيّة. علاوة على ذلك، استعملت ورقَ التغليف بأنماطه المُختَلِفة لجَعْل التأثير ثلاثيَّ الأبعاد.

تكمن قوّةُ رسمها بأنّه يمكن لأيِّ شخص أن يفهمَ القصّةَ بمجرَّدِ النظرِ إلى تركيب كُلِّ مشهدٍ مُخْتَلِف مع الشخصيّات التي تظهر خصائصُهم من خلال تعبيرها الفريد.






سلسلة الأوپرا
والمسرح العالمي

1. عايدة
2. كارمن
3. توسكا
4. فيديليو
5. لوهنغرين
6. بحيرة البجع
7. دون جيوڤاني
8. السيدة فراشة





دار المؤلف
Dar Al-Moualef

كلمة
KALIMA

معالم
maalem


ISBN 978-9953-76-355-2

فيديليو
قميص أخير